ولمَّا دخلت راحيل الى مخدعها خرَّت ساجدةً امام المصلوب وهتفت قائلةً: « ربِّي وإلهي اعضدني وساعدني فانك عالم بطهارة نيَّتي. قوِّني على اجتياز هذه المحنة وضع في شفاه عبدك الكلام الذي يردّ السلام الى نفسي »

ثمَّ انَّها تقدَّمت الى سرير فيه طفل رضيع لم يمضِ عليه غير سنة واحدة من العمر قبَّلت جبينهُ قائلة: « نَمْ يا حبيبي بهناء. والله اسأل ان تستر جاهلًا الاحزان التي تعذِّب قلب والدتك »

. . . . . .

وفي بدء الليل عند العشاء تقريباً خرج من البترون خيَّالان وذهبا في طريق طرابلس وكان اكبرهما قد ستر كل وجههِ بكوفيَّة كبيرة من الحرير واشتمل ببرنس عريض وركب فرساً من جياد الخيل عليها سرج من المخمل الاحمر

واماَّ الثاني فكان احطَّ مقاماً يجاوب بكل احترام على اسئلة رفيقهِ وكان الاثنان يوسعان الخطى قلقًا وصلا على مساواة طرابلس عند قبة الشيخ البدَّاوي غيَّرا فوراً طريقهما وتغلغلا في جبل عكَّار (ستأتي البقيَّة)

اكرم مثال في القديس يوحنَّا دي لاسال

للاب لويس شيخو اليسوعي

في ٢٤ أيَّار من السنة المنصرمة نال القديس يوحنَّا دي لاسال منشئ جمعيَّة المدارس المسيحيَّة اعظم مجد يمكن البشر ان يفوزوا بهِ في هذا العالم فان قداسة البابا لاون الثالث عشر بعد الفحص القانوني عن سموّ فضائلهِ وبيان معجزاتهِ الباهرة خوَّلهُ المقام الذي هو مختصّ باولياء الله ونظم اسمهُ في سجلّ القديسين وقدَّم لهُ الاكرام الجدير بشأنهِ واقام لهُ في رومية العظمى اعيادًا بهيجة دامت ثلاثة أيَّام عُرضت فيها ذخائر ولي الله وصورهُ لتكريم المؤمنين القادمين من اربع خوافق المعمور ثمَّ تكرَّرت هذه الاعياد في كل الانحاء والاقطار حيثما حلَّ ابناء هذا القديس الجليل اعني في اكثر مدن العالم المتمدّن. وفي آخر هذا الاسبوع تحظى مدينتنا بيروت بمثل هذه الحفلات الشائقة فيسمع المؤمنون اطيب الثناء على قديس عظيم لم يكتفِ بان يخدم ربَّهُ خدمةً صوريَّة بل

خلّف بعده سلالةً من ابنائه ورثوا عنهُ روحهُ الصالح وغيرتهُ المتقدة وتفانيهُ في سبيل الفقراء وتهذيب الاحداث وتعلّقهُ غير المنفصم بالكرسي الرسولي. فرأينا نحن ايضاً ان ننتهز هذه الفرصة لنذكر بوجيز الكلام اعمال هذا القديس ونشير الى شيء من فضله الاثيل الذي استحقّ لهُ هذا المنصب السامي في كنيسة الله

*

في اليوم ٣٠ من شهر نيسان من سنة ١٦٥١ كنت ترى أُسرة من اعيان مدينة ريمس في فرنسة تدعى دي لاسال تألّبت في كنيسة القديس هيلاريوس لتنضر بالعهاد ولداً صغيراً كان بكرَ والديه أنعم الله بهِ عليهما في ذلك النهار عينهِ فدعواهُ باسم صابغ الرب يوحنّا المعمدان كأنَّ الله اوحى اليهما انَّ هذا الصغير سوف يكون يوماً عظيماً امام وجههِ ويرشد اقدام شعبهِ الى سبيل السلامة

وقد شعر والداهُ التقيّان بعظم هذه المنّة التي اتاحها الله لهما فقاما بتربيتهِ احسن قيام. وخصوصاً امّهُ الصالحة فانّها اعدّتهُ وديعةً انتشتها الله عليها فغرست في قلبهِ بذور الورع والتقى منذ نعومة اظفارهِ. ومما يخبر عنها انها كانت اذا سمعت طفلها يستهل بالبكاء في مهدهِ تقرّب الى شفتيهِ صورة المصلوب فيسكت للحال وربّما تضع بين يديهِ الصغيرتين سُبحة العذراء فيكفّ الولد عن البكاء ويبسم وجههُ فرحاً. وحين قوي لسانهُ على الكلام كان اسم يسوع اول لهجة خرجت من فيهِ

ولمّا ترعرع الفتى جعل العبادة دأبهُ فكنت تراهُ يبكّر الى بيت الله ويقضي في الكنيسة قسماً من نهارهِ مستحراً بالصلاة او قائماً بجانب المذبح يخدم الكهنة ويساعدهم في اقامة الرتب الدينيّة بحشمة عجيبة تقرُّ لها ابصار الحاضرين. وكان الله عزَّ وجلَّ يجذب اليهِ قلب الولد ويسمعهُ صوتهُ ويدعوهُ الى خدمتهِ. فاجاب الى هذه الدعوة قبل ان يدرك الحادية عشرة من عمرهِ وتنازل عن حقوق البكريّة لاخوتهِ وخصّص نفسهُ لخدمة الهياكل ولم يرضَ بميراث غيرهُ تعالى. امّا والداهُ فلم يحولا بينهُ وبين مشيئتهِ عزَّ وجلَّ لعلمهما ان اعظم بركة للعيال المسيحيّة ان يختار الله لهُ منها اولاداً ينقطعون لخدمتهِ ويزهدون في الدنيا وملاذّها

ثمَّ اخذ يوحنّا دي لاسال يكبُّ على تحصيل العلوم في كليّة وطنهِ ريمس فافرغ جهدهُ في الدروس حتى برع في المعارف البشريّة واصاب بين اقرانهِ السهم الفائز. فوقع

حبهُ في قلب رئيس الكليَّة الكاهن القانوني دوزه (Dozet) فاراد ان يتنازل لهُ عن حقوق القانونيَّة والراتب المتآتي بها فخوَّلهُ الاسقف هذه الرتبة سنة ١٦٦٧ وادخلهُ في عداد القانونيين مع انهُ كان وقتئذٍ في مقتبل العمر لم يبلغ السابعة عشرة من سنهِ. وكان الكاهن الفاضل الذي انضم عليهِ بهذا المقام اوصاهُ بان يعيش في منصبهِ الجديد عيشة النسَّاك فجرى على وصيَّتهِ وصار قدوةً لكل من يعرفهُ

ولمَّا رأى رجل الله انهُ اتقن العلوم التي كانت كليَّة ريمس تعلمها الى باريس ليأخذ عن مشاهير اساتذة كليَّتها فتفرَّغ فيها للدروس العليا مدَّة سنتين واستعدَّ لدرجة الملنة. وكان في تلك الاثناء مقيمًا في مدرسة سان سوليس الشهيرة بين عدد غفير من الشبَّان الذين شرَّفوا الكنيسة بفضائلهم واعمالهم الخطيرة الَّا انَّ دي لاسال امتاز بينهم جميعًا واستلفت اليهِ بقداسة سيرتهِ كل الابصار

وفي اثناء دروسهِ ابتلاهُ الله بموت اعزّ اهلهِ ابيهِ وامّهِ فتحمَّل مصاب وفاتهما بتجمُّل وصبر لكنَّهُ اضطُرَّ الى ان يعود الى موطنهِ ليقوم بوصاة والديهِ ويسوس اخوته. فدبَّر كل الامور بحكمة عجيبة وهو مع ذلك يعدّ نفسهُ للكهنوت الذي رقاهُ الى رتبتهِ السامية اسقفهُ السيد لوتليار (Letellier) في كنيسة ريمس الكاتدرائيَّة في ٩ نيسان ١٦٧٨

فمذ ذاك اليوم تحوَّل يوحنا دي لاسال الى رجل جديد ومع انهُ كان يشار اليهِ سابقًا بالبنان لفضلهِ اضحى بعد ضمة الكهنوت كملاك متقمِّص بجسد بشري. فجعل يعود المرضى ويسعف المساكين ويتردَّد على السجناء. ولا يدع عملًا صالحًا الَّا يباشرهُ وكان يتمم كل واجبات الكهنوت من كرازة وتوزيع الاسرار بغيرة لا تعرف ملالًا حتى ردَّ كثيرين من الخطأة الى جادَّة الدين وسراط الفضيلة

*

لكنَّ الله عزَّ وجلَّ كان اصطفى الاب يوحنَّا دي لاسال لمشروع آخر اعظم خطرًا واعمّ جدوى كان من شأنهِ ان يغيّر وجه فرنسة ألا وهو تهذيب اولاد الفقراء بمبادئ العلوم وتربيتهم وفقًا للتعاليم المسيحيَّة. فانَّ المدارس الابتدائيَّة كانت قبل زمانهِ بايدي اناس لم يتجرَّدوا لهذا العمل تمامًا او يطلبون منهُ الربح فلم يمكن الفقراء ان ينالوا من منافع التهذيب الَّا القدر القليل. وكانت مع ذلك الكنيسة في مجامعها لا تزال تشدّد

على رعاتها وتحرضهم على الاهتمام بتعليم الصغار من جمهور الشعب لئلا تفسد آدابهم اذا أهملوا ويمرد سوء تربيتهم وبالًا على الهيئة الاجتماعيَّة. فوجَّه كثيرون من اهل الخير همَّتهم الى هذا الامر الخطير الَّا انَّ مساعيهم لم تعمّ كل الانحاء. وزد على ذلك انَّ اصحاب الاصلاح الموهوم من الكلفينيين كانوا بعد الحروب الدينيَّة افنوا قسماً كبيرًا من الاوقاف التي كان حبسها ذوو المبرّات في سبيل تهذيب اولادُ الشعب فلم يعد يمكن كثيرين من الاساقفة ان يقوموا بتكاليف المعلّمين

فلمّا هذا الخلل دعا الله الاب يوحنَّا دي لاسال الى انشاء جمعيَّة المدارس المسيحيَّة لتكون كعين ساهرة تجري على نفوس الاحداث غيرَ فاترة وتسقي كلّ البلاد بمياهها العذبة. على انَّ ولي الله لم يُقدم على هذا المسعى الجليل الَّا خطوةً خطوةً مدفوعاً من يدهِ تعالى دون ان يقاوم في شيء ارادتهُ عزّ وجلّ

وكان الله قيَّض لهذا الامر رجلاً غيورًا من اصحاب الخير يُدعى نيال (Nyel) كان يطوف فرنسة ليُنشئ في انحائها مدارس مجانيَّة للفقراء فاستدعتهُ امرأة فاضلة من ذوي الثروة اسمها ميلفر (M^me^Maillefer) من قرابة القديس دي لاسال ليفتح مدرسةً في موطنها رينس فاجاب الى دعوتها وباشر بالامر سنة ١٦٧٩

وبعد زمن قليل انضمَّ الى المسيو نيال معلّمون آخرون فاختاروا يوحنَّا ديلاسال كمرشد لهم ومساعد. فالقديس رغمًا عمَّا كان يقتضي ذلك منهُ من الايثار وتضحية النفس لم يأبَ ان يروّح خير الترويح على راحتهِ. لكنهُ ما دخل في هذه الطريق حتى تراكمت عليهِ الهموم وتزايدت الاتعاب. وكان هؤلاء المعلمون يأتونهُ من طبقات العامَّة معارفهم قليلة وفيهم من النقائص والطباع الغثَّة ما اعتادهُ مثلهم. فتولَّى القديس ارشادهم وكسب ثقتهم وجعل يجمعهم مرارًا ليعلّمهم اساليب تهذيب الاطفال ويزرع في قلوبهم فضائل المعلّمين المسيحيين حتى صاروا اهلًا بدعوتهم

ثمّ دعت الاحوال المسيو نيال الى ان يخرج الى مدينة أخرى فصارت كلّ اعباء التدبير على عاتق الكاهن الفاضل وأخذ المعلّمون يعتبرونهُ كابٍ لهم ورئيسهم الخاصّ. فزاد حبهُ نحوهم فدعاهم الى مائدتهِ ثمّ ادخلهم بيتهُ وجعلهم ضيوفهُ بل كان يعيش بينهم كانهُ واحدٌ منهم. فادَّى بهِ لطفهُ الى ان صار كالاب المصطفى كلًّا للكلّ ليربحهم جميعاً للمسيح بل كان يخدمهم ويصرف عليهم من مالهِ ويعزّيهم في ضيقتهم ويعتني بتلامذتهم

القديس يوحنا دي لاسال
منشئ جمعية اخوة المدارس المسيحية

الصغار حتى انهُ كان يتولى تعليمهم بنفسهِ اذا مرض احدهم

بيد ان هـذه العيشة التقشفة أثارت عليهِ بغض اهلهِ واصحابهِ فهجروهُ ونقموا عليهِ واصابهُ من المحن العديدة والاضطهادات الجمَّة ما كان كفيلاً ليثنيهُ مرارًا عن عزمه وهفتَ في ساعده . وكثيرًا ما كانت تأتيهِ البلايا والشدائد ممَّن كان الاجدر بهم ان يساعدوهُ في اعمالهِ المبرورة فكان يحتمل كلَّ ذلك بصبر جميل ويقتبل الاهانات دون ان ينبس بكلمة

وكان الله يسند عبدهُ بقدر ما يوسعهُ البشر الماً واحتقارًا . فيتجلى لهُ في الصلاة ويعزّيهِ ويملأ قلبهُ فرحًا وسرورًا ويبارك على جمعيَّتهِ وينميها بالعدد والفضل حتى جعل اساقفة فرنسة يطلبون اليهِ ان يرسل الى مدنهم من ابنائهِ من يقوم بتهذيب اولاد الفقراء فما لبث ان شاع اسمهم في كل انحاء الدولة

امَّا القديس فكان همُّهُ الاعظم ان يثبت بنيهِ ويقوّي في قلبهم روح التجرُّد والتفاني ولمَّا رأى انهُ حان الوقت ليربطهم برباط النذور الرهبانيَّة عرض عليهم ذلك فاجاب قسم منهم بطيبة الخاطر وابرزوا نذورًا موقتة بين يديهِ

وكان يوحنا دي لاسال اوَّل من يحافظ على هذه النذور ويمارسها بنشاط لا مثيل لهُ . فانَّ حبَّهُ للفقر قد بلغ بهِ الى ان تجرَّد عن كل اوقاف قانونيَّتهِ والمال الموروث من والديهِ ففرَّق كل ذلك على المساكين ولم يشأ ان يعطي شيئًا منهُ لاهلهِ او للجمعيَّة التي انشأها ليزيد بذلك زهدهُ واتكالهُ على الله . فكان يأكل مع اخوتهِ خبز الصدقة الذي يستعطيهِ على ابواب المحسنين

امَّا عفَّتهُ فكانت تصيّرهُ شبيهًا بملائكة الله حتى انَّ كل من كان ينظر اليهِ او يقترب منهُ او يعترف عندهُ يشعر بمحبَّة الفضيلة والرغبة في السيرة الطاهرة . ولمَّا اتت اليهِ جدَّتهُ لتعودهُ في مرض عُضال كان اصابهُ لم يسمح لها ان تدخل غرفتهُ بل آثر ان يقوم من فراشهِ ليواجهها في الديوان البرّاني ليعلّم اولادهُ حبَّ الطهارة والتقوى معًا

الَّا ان الطاعة كانت فضيلتهُ الخاصَّة كان يقدّمها على سواها لعلمهِ انها اسُّ الحياة الرهبانيَّة وكمالها . وقد اعطى في ذلك لبنيهِ امثالاً جليلة ساروا بموجبها فزادوا بذلك فضلاً . منها امتثالهُ لاوامر الكرسي الرسولي واخلاص طاعتهِ للحبر الروماني . وكثيرًا ما سعى اعداء الكنيسة لاسيما اليانسيين ان يفصلوهُ وجمعيَّتهُ عن نائب المسيح كما

فعلوا بجمعيات أخر فوجدوا القديس في ذلك كالصخرة الصماء لا تلينهُ المواعيد ولا تخيفهُ ضروب الوعيد . والحقّ يقال انّ هذا الذي جعل اعمالهُ مثمرةً نامية واخويتهُ مزهرة عامرة الى يومنا رغمًا عن طوارئ الدهر ونكبات الزمان

ومما يزاد عمل القديس ثباتًا انهُ وضع لابنائهِ قانونًا مملوءًا من الحكمة والتقى اثبتهُ بعد وفاتهِ الكرسي الرسولي . ومن اعمالهِ تنظيمهُ لدروس المدارس الابتدائيَّة في كل طبقاتها ووضعهُ اساس المدارس التعليميَّة (écoles normales) وقد صنَّف تأليفًا موجزًا لتهذيب اخلاق الاحداث وضمَّنهُ القواعد الادبيَّة التي يحتاج اليها الصغار (١ . وله غير ذلك من المشروعات الجليلة التي يؤدي بنا شرحها الى الاطناب المملّ وفي ما سبق ما يكفي لبيان فضل هذا القديس

وكانت وفاة يوحنَّا دي لا سال في ٧ نيسان من سنة ١٧١٩ وقلبهُ طافحٌ بفرح سيدهِ الذي دعاهُ كالعبد الامين ليجازيهُ عن تجارتهِ الرابحة . فانهُ ما سمع الطبيب يخبرهُ بقرب ساعة موتهِ حتى صرخ : « يالها من بشرى كنتُ انتظرها من زمن مديد » ثم قام من فراشهِ كأنهُ نسي اوجاعهُ وجثا واكبًا على الحضيض ليتناول جسد ربّهِ بما امكنهُ من الورع والتواضع . ولمَّا حانت ساعة النزاع اجتمع اليهِ بنوهُ وطلبوا منهُ بركة الاب لاولادهِ فقال : « اخوتي . فليباركم جميعًا الملي بيمينهِ . وهذه وصاتي اليكم اعتزلوا اهل العالم وحافظوا على قانونكم لتثبتوا في دعوتكم » . ثم انقطع الى مناجاة الله وطال تراعهُ فلمَّا كان عصر النهار فتح عينيهِ وبسط ذراعيهِ وحاول ان يقوم كانهُ يريد استقبال صديق له ثمَّ ضمَّ يديهِ واسلم روحهُ الطاهرة لخالقهِ يوم جمعة الآلام نحو الساعة التي مات بها الفادي

وما كاد ولي الله يودّع هذه الحياة الفانية حتى انتشر عرف فضلهِ وكرَّمهُ عزَّ وجلَّ بعمل المعجزات وارعوى اعداؤهُ فاقروا بقداستهِ واخذ الكرسي الرسولي منذ ذاك الحين يبحث بحثًا شرعيًا عن فضائلهِ السامية وعجائبهِ الباهرة . ولمَّا لم يبقَ لاحد في ذلك ادنى ريب طوَّبهُ الحبر الروماني في ١٩ شباط سنة ١٨٨٨ ثم تكرَّرت العجائب بشفاعة الطوباوي بعد ذلك وتبيَّن المجمع المقدَّس صحَّتها فعاد البابا لاون في السنة الماضية ورقَّى يوحنَّا دي لاسال الى رتبة القديسين الذين لا يمكن الارتياب في سموّ قداستهم ووجوب اكرامهم في العالم الكاثوليكي اجمع

(١) وهذا الكتاب قد عرَّبهُ مؤخرًا بتصرُّف جناب يوسف افندي صقير وطبعهُ في بيروت

ونحن بهذه النزهة نهنئ اخوة المدارس المسيحيّة الافاضل بالشفيع العظيم الذي تالوه من يد الرب ونتمنى لهم من صميم الفؤاد ان يداوموا على تقفّي آثار منشئهم الجليل فيزيدوا تحت لوائه نشاطاً في فلاحة كرم الرب (١

تاريخ فنّ الطباعة في المشرق

نبذة للاب لويس شيخو اليسوعيّ (تابع لما سبق)

فنّ الطباعة في الشام (تابع)

٥ المطابع في لبنان

انتهينا بايده تعالى من تاريخ فنّ الطباعة في بيروت. فلا بدّ ان نلحق المقالات السابقة بنبذة عن المطابع في لبنان. قلنا سابقاً انّ فن الطباعة كان اول ظهوره في برّ الشام وذلك في دير قزحيا في وادي قاديشا حيث طبع اول كتاب بحرف سرياني وهو كتاب الزبور (راجع المشرق ٣: ٢٥١) ثمّ اتسعنا في ذكر مطبعة هذا الدير مع ما يختصّ بتاريخ مطبعة دير مار يوحنّا الصابغ في الشوير (المشرق ٣: ٣٦٠)

الّا انهُ منذ أواسط القرن التاسع عشر أُنشئت في لبنان مطابع جديدة لا نرى

---

١) اعلم ان اخوة المدارس المسيحيّة يبلغون اليوم نحو ١٢٠٠٠ اخ مع المبتدئين الذين يطلبون الدخول في جمعيتهم. ونصف هؤلاء الاخوة يهذّبون الشبيبة في فرنسة ولا يقلّ فيها عدد تلامذتهم عن ٣٠٠,٠٠٠ امّا الباقون فهم منتشرون في اربع قارات المعمور. وفي أقطار الشرق منهم عدد غفير. وقد اكتسبوا خصوصاً في مصر وفلسطين وسوريّة ثقة الجمهور بحسن تعليمهم وتربيتهم للاحداث. وقد ترأس عليهم منذ عهد القديس يوحنّا دي لاسال ثلاثة عشر رئيساً هذه اسماؤهم مع تاريخ رئاستهم: ١° الاخ برتلمي وكان تولى الرئاسة قبل موت القديس دي لاسال (١٧١٧–١٧٢٠) = ٢° الاخ تيموثاوس (١٧٢٠–١٧٥١) = ٣° الاخ كلوديوس (١٧٥١–١٧٦٢) = ٤° الاخ فلورنس (١٧٦٢–١٧٧٧) = ٥° الاخ اغاتون (١٧٧٧–١٧٩٥) تبعهُ الاخ فرومنس (١٧٩٥ ١٨١٠) ولم يُعدّ كرئيس عام وانّما كان كنائب لهُ = ٦° الاخ جربود (١٨١٠–١٨٢٢) = ٧° ظيوم دي جيزو (١٨٢٢–١٨٣٠) = ٨° الاخ اناكليت (١٨٣٠–١٨٣٨) = ٩° الاخ فيليب (١٨٣٨–١٨٧٤) = ١٠° الاخ جان اوليسن (١٨٧٤–١٨٧٥) = ١١° الاخ إرليد (١٨٧٥ – ١٨٨٤) = ١٢° الاخ يوسف (١٨٨٤ – ١٨٩٦) = ١٣° الاخ جبرائيل وهو الرئيس الحالي (١٨٩٦)